

أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها والصبر على محبوها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال ﴿فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله ﴿ولا تستعجل لهم﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى : ﴿فذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾ وكقوله تعالى : ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴿كقوله جل وعلا﴾ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴿وكقوله عز وجل﴾ ويوم نحشهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴿الآية . وقوله جل وعلا ﴿بلاغ﴾ . قال ابن جرير يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون تقديره وذلك لبث بلاغ ، والآخر أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى : ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ أي لايهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة الأحقاف والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

ينزل تعالى : ﴿الذين كفروا﴾ أي بآيات الله ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاءً كقوله تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ ثم قال جل وعلا ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿هو الحق من ربهم﴾ جملة معترضة حسنة ولهذا قال جل جلاله ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي أمرهم . وقال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة وابن زيد : حالهم والكل متقارب . وقد جاء في حديث تسميت العاطس «يهديكُم الله ويصلح بالكم» ثم قال عز وجل ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شؤونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه في معادهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوا فَشُدُّوا الْوَتَانَ فَمِمَّا تَبَعُوا وَمَا فِئَاءُ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ

أُوزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١٤١﴾ سَيِّئَاتِهِمْ

وَيُضِلُّ بِالْهَمِّ ﴿١٤٢﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْحَنَافَةِ عَرَفَهَا هُمْ ﴿١٤٣﴾ بَنِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَضْرِبْكُمْ وَيُنِيبُ أَقْدَامَكُمْ ﴿١٤٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

فَتَعَسَّاهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١٤٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿١٤٦﴾

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى مايعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف ﴿حتى إذا أنختموهم﴾ أي أهلكتموهم قتلا ﴿فشدوا الوثاق﴾ الأسارى الذين تأسروهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة تخيرون في أمرهم ، إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسارهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بما لا تأخذونه منهم وتشارطوهم عليه ، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ، ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ فقال ﴿ماكان لشي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه مسوخة بقوله تعالى : ﴿فإذا انسلكوا الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية ، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال قتادة والضحاك والسدي وابن جرير وقال الآخرون وهو الأكثرون : ليست بمسوخة ، ثم قال بعضهم : إنما الإمام يخير بين المن على الأسير ومفادته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر . وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له «ماعندك ياثمامة ؟» فقال إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنن تمنن على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت . وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام يخير بين قتله أو المن عليه أو مفادته أو استرقاقه أيضاً ، وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام والله سبحانه وتعالى الحمد والمنة .

وقوله عز وجل ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكانه أخذ من قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال» . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسحاق بن عياش عن إبراهيم بن سليمان ، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرجسي عن جبير بن نفير قال : بن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال إني سبيت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت لاقتال ، فقال له النبي ﷺ «الآن جاء القتال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ الله تعالى قلوب أقوام ، فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل السكوني به .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا داود بن رشيد ، حدثنا الوليد بن جبير بن محمد بن مهاجر ، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرجسي عن جبير بن نفير عن النواس بن سميان رضي الله عنه قال : لما فتح رسول الله ﷺ فتح قالوا يا رسول الله سبيت الخيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب أوزارها قالوا لاقتال قال «كذبوا الآن جاء القتال ، ولا يزال الله تعالى يزيغ قلوب قوم يقاتلونهم فيرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله ، وهم على ذلك وعقد دار المسلمين بالشام» . وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد به ، والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفيل كما تقدم ، وهذا يقوي القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب . وقال قتادة ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ حتى لا يبقى شرك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ . ثم قال بعضهم : حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله عز وجل ، وقيل أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى . وقوله عز وجل ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ولكن ليلوا بعضكم ببعض﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله تعالى : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ .

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها . ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه ، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي ، حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ «عطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان» تفرد به أحمد رحمه الله .

[حديث آخر] قال أحمد أيضاً : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثني إسحاق بن عياش عن يحيى بن سعيد عن خالد بن

معدان عن المقدم بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج الحور العين ويحار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه» . وقد أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين» وروي من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ؛ وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته» ورواه أبو داود والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً .

وقوله تبارك وتعالى : «سيهديم» أي إلى الجنة كقوله تعالى : «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم» . وقوله عز وجل «ويصلح بهم» أي أمرهم وحالهم «ويدخلهم الجنة عرفها لهم» أي عرفهم بها وهداهم إليها . قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحد ، وروى مالك عن زيد بن أسلم نحو هذا ، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه ، ذكره ابن أبي حاتم رحمه الله . وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضاً رواه البخاري من حديث قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا» .

ثم قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» كقوله عز وجل «ولينصرون الله من ينصروه» فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : «ويثبت أقدامكم» كما جاء في الحديث «من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة» ثم قال تبارك وتعالى : «والذين كفروا فتعسأ لهم» عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش!» أي فلا شفاه الله عز وجل . وقوله سبحانه وتعالى : «وأضل أعمالهم» أي أخطأها وأبطلها ، ولهذا قال «ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله» أي لا يريدونه ولا يجوبه «فأحبط أعمالهم» .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَآلَهُمْ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَانَ مِن قَرِيبِهِمْ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرِينِكَ

الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يقول تعالى : «أفلم يسيروا» يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﷺ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم» أي عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم ، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم ، ولهذا قال تعالى : «وللكافرين أمثالها» . ثم قال «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم» ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد ، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يجب وقاله : أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : كذبت ياعدوا الله بل أبقي الله تعالى لك ما يسوءك ، وإن الذين عدت لأحباء ؛ فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثله لم أمر بها ، ولم أنه عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : أعل هبل أعل هبل . فقال رسول الله ﷺ «ألا تحببوه؟» فقالوا : يارمول الله ومانقول قال ﷺ

قولوا «الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولاعزى لكم ، فقال ﷺ «ألا تحببوه؟» قالوا : وما نقول يا رسول الله؟ قال : قولوا «الله مولانا ولا مولى لكم» .

ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام خضياً وقضياً ، وليس لهم همة إلا في ذلك ، ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» ثم قال تعالى : ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي يوم جزائهم ، وقوله عز وجل ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ يعني مكة «أهلكناهم فلا ناصر لهم» وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والآخرة؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة فإن العذاب يوفى على الكافرين به في معادهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم . وقال ابن أبي حاتم : ذكر أبي عن محمد بن عبد الأعلى عن المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش ، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وأنه فالتفت إلى مكة وقال «أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلي ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك» فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخول الجاهلية ، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ زِينَةٍ لَمْ يَسُوءْ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : ﴿أفمن كان على بيته من زينة من ربه﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ، ﴿كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم؟﴾ أي ليس هذا كهذا ، كقوله تعالى : ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟﴾ وكقوله تعالى : ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ ثم قال عز وجل ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ قال عكرمة ﴿مثل الجنة﴾ أي نعتها ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة : يعني غير متغير . وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني : غير متتن ، والعرب تقول : أسن الماء إذا تغير ريحه ، وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم : غير آسن يعني الصافي الذي لا كدر فيه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق قال : قال عبد الله رضي الله عنه : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة واللدسومة ، وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضرع الماشية» ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾ ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ وفي حديث مرفوع «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح . وفي حديث مرفوع «لم يخرج من بطن النحل» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا الجريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «في الجنة بحر اللبنة وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد» ورواه الترمذي في صفة الجنة عن محمد بن يسار عن يزيد بن هارون ، عن سعيد بن أبي بإس الجريري وقال : حسن صحيح . وقال أبو بكر بن

مردويه : حدثنا احمد بن محمد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عبيد ابو قدامة الأيادي ، حدثنا ابو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوية ثم تصدع بعد أنهاره وفي الصحيح «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه اوسط الجنة ، وأعلى الجنة ومنه تفرج أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن» .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة ، الزبيري وعبد الله بن الصفر السكري قالا : حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة ، حدثني عبد الرحمن بن عياش عن دهم بن الأسود قال دهم ، وحدثنيه أيضاً أبو الأسود عن عاصم بن لقيط قال : إن لقيط بن عامر خرج واقداً إلى رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله فعلى ما نطلع من الجنة ؟ قال ﷺ «على أنهار غسل مصفى ، وأنهار خر ماها من صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمرك ما تعلمون وخير من مثله ، وأزواج مطهرة» قلت : يا رسول الله أولنا فيها أزواج مصلاحات ؟ قال «الصالحات للصالحين تلذوثن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذوثنكم ، غير أن لاتوالده وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن ابي الدنيا : حدثنا يعقوب بن عبيد عن يزيد بن هارون ، أخبرني الجريري عن معاوية بن قرة عن أبيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض ، حافاتها قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر ، وقد رواه ابو بكر بن مردويه من حديث مهدي بن حكيم عن يزيد بن هارون به مرفوعاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كقوله عز وجل ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ أَمْنٍ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ اي مع ذلك كله . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات ﴿وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي حاراً شديداً الحر لا يستطيع ﴿فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ اي قطع ما في بطونهم من الامعاء والاحشاء - عياذاً بالله تعالى من ذلك .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَاً

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ آهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآلَهُمْ نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ ﴿١٨﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذْ جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٩﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّوَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً فإذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ماذا قال أنفأ﴾ أي الساعة . لا يعقلون ما قال ولا يكثرثون له . قال الله تعالى : ﴿اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح . ثم قال عز وجل ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي أهداهم رشدهم . وقوله تعالى : ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ أي وهم غافلون عنها ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى : ﴿هذا نذير من النذر الأولى أذنت الأزقة﴾ وكقوله جلّت عظمتها ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ وقوله جل وعلا ﴿اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجّة على العالمين .

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله ، كما هو مبسوط في موضعه . وقال احسن البصري : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وهو كما قال ولهذا جاء في أسنانه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي .

وقال البخاري : حدثنا أحمد بن المقدم ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا أبو رجاء ، حدثنا سهل بن سعد رضي

الله عه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها «بعثت أنا والساعة كهاتين» ثم قال تعالى : ﴿فَأَن لَّمْ إِذَا جَاءتَهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كقوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَن لَّهُ الذِّكْرَى﴾ . ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَن لَّمْ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ . وقوله عز وجل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه قوله عز وجل ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يقول «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجددي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي» . وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت» وفي الصحيح أنه قال «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عاصم الأحول قال : سمعت عبد الله بن سرخس قال : أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه فقلت غفر الله لك يا رسول الله فقال ﷺ «ولك» فقلت أستغفر لك . فقال رسول الله ﷺ «نعم ولكم» وقرأ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم نظرت إلى بعض كنفه الأيمن - أو كنفه الأيسر شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجمع عليه التآليل ، ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الأحول به ، وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى : حدثنا محمد بن عون ، حدثنا عثمان بن مطر ، حدثنا عبد الغفور عن أبي نصر عن أبي رجاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منها فإن إبليس قال : إنما أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالاهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون» وفي الأثر المروي «قال إبليس وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَقَالِبِكُمْ وَثَوَاكِمُ﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليالكم كقوله تبارك وتعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا القول ذهب إليه ابن جريج وهو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة ، وقال السندي متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم ، والأول أولى وأظهر ، والله أعلم .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۞ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۞

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد ، فلما فرضه الله عز وجل وأمر به نكل عنه كثير من الناس كقوله تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظلمون فتيلاً﴾ وقال عز وجل ههنا ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ أي مشتملة على حكم القتال وهذا قال ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء ، ثم قال مشجعاً لهم ﴿فأولئك لهم طاعة وقول معروف﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد الحال ، وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾ أي خلصوا له النية ﴿لكان خيراً لهم﴾ .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟﴾ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام ، ولهذا قال تعالى :

﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ وهذا نبي عن الافساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالاصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة، قال البخاري: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مزرد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن عز وجل فقال له، فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ ثم رواه البخاري من طريقين آخرين عن معاوية بن أبي مزرد به قال: قال رسول الله ﷺ «اقرءوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾». ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرد به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن علي، حدثنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن عن ابيه عن ابي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ممن ذنب أخرى أن يجعل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث إسماعيل هو ابن علي به، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال الامام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المراتي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي عن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النساء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه». تفرد به أحمد وله شاهد في الصحيح. وقال احمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيثون أفأفأفهم؟ قال ﷺ: «لا»، إذن تتركون جميعاً ولكن جد بالفضل وصلهم، فانه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ما كنت على ذلك» تفرد به أحمد من هذا الوجه وله شاهد من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى، حدثنا مطر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ «ان الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» رواه البخاري. وقال أحمد: حدثنا هيز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة عن أبي ثمامة الثقفي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ «توضع الرحم يوم القيامة لها حجة كحجة المغزل تكلم بلسان طلق ذلق، فتقطع من قطعها وتصل من وصلها» وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنها يبلغ به النبي ﷺ قال «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شحنة من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها بته» وقد رواه أبو داود والترمذي من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار به، وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولوية وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الامام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن إبراهيم بن عبد الله بن فارض. أن أباه حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريض فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه، وصلتك رحم إن رسول الله ﷺ قال «قال الله عز وجل أن الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي؛ فمن يصلها أصله ومن يقطعها أقطعها فأبته - أو قال - من بنتها أبته» تفرد به أحمد من هذا الوجه، ورواه أحمد أيضاً من حديث الزهري عن أبي سلمة عن المراد - أو أبي المراد - عن عبد الرحمن بن عوف به، ورواه أبو داود والترمذي من رواية أبي سلمة عن أبيه، والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقال الظهري: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى بن يونس عن الحجاج بن يونس عن الحجاج بن الفرافصة، عن أبي عمر البصري عن سليمان قال: قال رسول الله ﷺ «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وبه قال رسول الله ﷺ «إذا ظهر القول وخزن العمل واختلفت الألسنة وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم» والأحاديث في هذا كثيرة، والله أعلم.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَا ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ

مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿١٠٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ

أَنَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّقَهُ الْمَلَائِكَةُ بِضُرُوتِ وَجْهِهِمْ
وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى أمراً بتدبير القرآن وتفهمه ونهايا عن الاعراض عنه فقال ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه ، قال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه رضي الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ يوماً ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتى ولي فاستعان به . ثم قال تعالى : ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿وأملئهم﴾ أي غرهم وخذعهم ﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي مالؤهم وناصحوهم في الباطن على الباطل وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون ، ولهذا قال الله عز وجل ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ أي ما يسيرون وما يخفون ، الله مطلع عليه وعالم به كقوله تبارك وتعالى : ﴿والله يكتب ما يبطنون﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب ﴿أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٦٩﴾

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قُلُوبَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَنَّهُمْ وَلِتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٧٠﴾ وَلَسَبَلْتُكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ

الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿٧١﴾

يقول تعالى : ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم؟﴾ أي ايعتقد المنافقون ان الله لا يكشف امرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح امرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد انزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فينبغي فيها فضائحتهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والأضغان : جمع ضغن وهو مافي النفوس من الحسد والحقد للاسلام واهله والقائمين بنصره . وقوله تعالى : ﴿ولو نشاء لأريناكم قلوبهم فلعرفتهم بسيماهم﴾ يقول عز وجل ولو نشاء يا محمد لأريناك اشخاصهم فعرفتهم عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه ، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة وردًا للسرائر التي عالها ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مفاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول كما قال امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما اسر احد سريرة الا ابداهها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وفي الحديث «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها ان خيراً فخير وان شراً فشر» وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد في اول شرح البخاري بما اغنى عن إعادته ههنا ، وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين . قال الامام احمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن سلمة بن عياض عن ابيه عن ابي مسعود عقبه بن عمرو رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى واثى عليه ثم قال ﴿إن منكم منافقين فمن سميت فليقم - ثم قال - قم يا فلان ، قم يا فلان قم يا فلان - حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً ثم قال - ان فيكم او منكم - منافقين فاتقوا الله﴾ قال فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمي مقنع قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ

فقال : بعداً لك سائر اليوم . وقوله عز وجل ﴿وَلْيَلْبِغُوا فِيكُمْ﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن انه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد حتى نعلم وقوعه ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا : إلا لنعلم أي لنرى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ
 أَعْمَلُهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهْتَفُوا بِذَعْوَىٰ إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا عَلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ
 يَبْرِكُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾

بغير تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه ، وارتد عن الايمان من بعد ماتين له الهدى انه لن يضر الله شيئاً ، وانما يضر نفسه ويحسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يشبهه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده مثقال بعوضة من خير ، بل يحطه ويحقه بالكلية كما ان الحسنات يذهبن السيئات . وقد قال الامام احمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة . حدثنا ابو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا ابو جعفر الرازي عن الربيع بن انس عن ابي العالية قال كان اصحاب رسول الله ﷺ يرون انه لا يضر مع «لا اله الا الله ذنب» كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم﴾ فخافوا ان يبطل الذنب العمل ، ثم روي عن طريق عبد الله بن المبارك اخبرني بكر بن معروف عن مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا معشر اصحاب رسول الله ﷺ نرى انه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت ﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم﴾ فقلنا : ما هذا الذي يبطل اعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى : ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فلما نزلت كففتنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من اصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

تم امر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والاخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للاعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولا تبطلوا اعمالكم﴾ أي بالردة ، ولهذا قال بعدها ﴿ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾ كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ الآية . ثم قال جلا وعلا لعباده المؤمنين ﴿فلا تنهوا﴾ أي لاتضعفوا عن الاعداء ﴿وتدعوا الى السلم﴾ أي المهادنة والمسالة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال فوتكم وكثرة عددكم وعددكم ، . . . ولهذا قال ﴿فلا تنهوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون﴾ أي في حال علوكم على عدوكم . . . فاما اذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة الى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة ، والمعاهدة مصلحة فله ان يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه الى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ الى ذلك . وقوله جلّت عظمته ﴿والله معكم﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الاعداء ﴿ولن يترككم اعمالكم﴾ أي ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم اياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً والله اعلم .

إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنَّ يَسْتَلِكُمْ هَا فَيُخَفِّكُم
 تَبَخَّرُوا وَيُخْرِجُ أَصْفَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَاتَا شَرُّ هَاتَا تَدْعُونَ لِيُسْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ
 فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتبويناً لشأنها ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوٌ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً وإنما فرض عليكم الصدقات من الاموال مواسة لآخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه اليكم ، ثم قال جل جلاله ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ أي يخرجكم تبخلوا ﴿وَيُخْرِجُ اضْغَانَكُمْ﴾ قال قتادة : قد علم الله تعالى ان في اخراج الاموال اخراج الاضغان . وصدق قتادة فان المال محبوب ولا يصرف الا فيما هو احب الى الشخص منه . وقوله تعالى : ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنَفْسِكُمْ أَنْ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ أي لا يجيب الى ذلك ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾ أي انما نقص نفسه من الأجر وانما يعود وبال ذلك عليه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي عن كل ماسواه وكل شيء فقير اليه دائماً ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ أي بالذات اليه ، فوصفه بالبغي وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَتَلَوْا﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . وقال ابن ابي حاتم وابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، اخبرني مسلم بن خالد عن العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَإِنْ تَتَلَوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ قالوا : يارسول الله من هؤلاء الذين ان توليتنا استبدل بنا ثم لا يكونوا امثالنا ؟ قال : فضرب يده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال وهذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس ، تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم ، والله اعلم .

آخر تفسير سورة القتال والله الحمد والمنة .

سُورَةُ الْفَتْحِ

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا شعبة عن معاوية بن قرة قال سمعت عبد الله بن مغفل يقول قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها قال معاوية لولا اني أكره أن يجتمع الناس عليه لحكيت قراءته ، اخرجاه من حديث شعبة به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾

وَيُضْرِكَ اللَّهُ نُصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾

زلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا الى المصالحة والمهادنة ، وان يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم الى ذلك على تكراه من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة ان شاء الله تعالى ، فلما نحر هديه حيث احصر ورجع انزل الله عز وجل هذه السورة فيها كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة ومآل الأمر اليه ، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره انه قال : انكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية ، وقال الأعمش عن ابي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح الا يوم الحديبية ، وقال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسراييل عن ابي اسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر فترحناها فلم